

طور تاريخي جديد يدخله العالم مرغماً

الوباء

يطوي عصر الميليشيات والثورات والدولة القديمة



● دوامات من التفاعلات تجري اليوم في حال استمرار الوباء، سنتنحج بدورها أنماط جديدة من العلاقات، قد تكون بوابة لعنف ونهب بلا حدود، سبق الشعب الأمريكي الجميع واستعد لهما بالإقبال على شراء وتخزين السلاح.

● مبدأ "القوة الغاشمة" المتبع على امتداد خرائط الكوكب، لم يعد من الممكن استخدامه لتحقيق أي أهداف استراتيجية، ولم يعد بوسعها بسط النفوذ بعد اليوم. وهذا يعني فقدان جدوى تأسيس الميليشيات وعديد وعدة الجيوش.

سيتأثر النظام العدلي العالمي في حال كان من المستحيل إزّال عقوبة السجن بحق مدان؟ حتى لو كان سجناً إفرادياً، فهو سيعني حكماً بالموت على السجن. وتبقى سجون العراق وسوريا الأكثر عرضة لذلك احتمالاً، طالما لا تعترف حكومتا البلدين بضرورة اتخاذ إجراء سريع ينقذ أرواح مئات الآلاف من المعتقلين.

ما لم تستطع الثورات والمظاهرات تحقيقه، سواء بسبب استيلاء المتطرفين عليها أو بسبب ضياع بوصلتها، أو بسبب تعنت الأنظمة التي واجهتها، حققها الفايروس برفعة جفن، وهو يقوم بتغيير العالم، ليس بالضرورة نحو ما أرادته تلك الحركات، لكنه بالتأكيد سيقوده إلى مرحلة تطور جديدة. وسواء عتقت تلك الشعوب أو لم تعنها، فهي مرحلة قائمة على تهديد عالمي علاجه سيكون حلاً عالمياً لا أبواب مغلقة في وجهه. لأن الضرورة ستفرضه وليس الاختيار.

أصبح اللجوء إلى العقل، والحلول العلمية هو المخرج الوحيد لجميع الاستعصاءات في العالم العربي، على سبيل المثال، وهو المنطقة الأكثر سخونة في العالم التي كانت تنح تحت وباء العنف، حتى أيام قليلة معدودة، قبل أن تصبح أوروبا هي بؤرة الوباء الجديد. لم يعد ممكناً تنسيق الناس في تجمعات بعينها والطلب منهم التظاهر من أجل أي مطلب مهما كان عادلاً، فالموت أقرب إلى الإنسان من أي وقت مضى، كما لم يعد ممكناً، في الجهة المقابلة، إصدار تعليمات لرجال الأمن والشرطة بالاحتشاد لقمع أي حركة احتجاجية حتى بخراطيم المياه. وضع جديد تماماً، لم يكن في حسابان الطرفين.

إزاء ذلك، ماذا سيفعل العاطلون الجدد عن العمل، بعد أن ينهار الاقتصاد القديم، وريثما يستبدل بنمط جديد قادر على استيعاب الذين تستغني عنهم الشركات اليوم وغداً؟ وبالتالي سوف تواجه الدول التي لم تكن مستعدة لتحقيق أمن مواطنيها الصحي، إشكالات هائلة، بدءاً من هذه المرحلة المتقدمة التي تطلب فيها الدولة من المواطنين البقاء في منازلهم، من غير أن تؤمن لهم أي شكل من أشكال الضمان الاجتماعي والغذاء والعمل من المنزل كما يحصل في الدولة المتقدمة.

كل هذا يصنع دوامات من التفاعلات لا نهاية لها، في حال استمرار الوباء، سنتنحج بدورها، دون شك، أنماط جديدة أيضاً من الاحتجاج، وأكثر ما يخشى منه أن تكون بوابة لعنف ونهب على نطاق واسع، سبق الشعب الأمريكي الجميع واستعد له بالإقبال على شراء وتخزين السلاح، فالوباء يغير الأرض، تغييراً جذرياً اليوم، ويبدلها عصرًا جديدًا مرغماً عن الجميع.

الانتقال من الشكل القديم للدولة ذات الاقتصاد الحر، سيؤدي إلى تقليص حريات أخرى في المجتمعات العالمية، وليس بالضرورة أن يقود إلى دولة مغلقة على مواطنيها خلف ستار حديدي، بل قد يقدم قالباً جديداً للدولة أكثر تطوراً وتعقيداً

رصدنا بسيطاً للعمليات شبه المعهومة التي نفذتها تلك الميليشيات بشكل "حشدي"، بعد انتشار فايروس كورونا بريننا أنه لم يعد من الممكن تجميع نحو المقاتلين بالصورة ذاتها والدفع بهم على الحالة المقابلة، سواء في أوساط الفصائل العسكرية السورية أو حتى في أوساط التنظيمات المتطرفة، كداعش والقاعدة، أو في الحرب الدائرة في ليبيا. إنه زمن ولي من دون رجعة. تتسابق دول العالم إلى تبييض سجونها، والإفراج العاجل عن الآلاف من المساجين والمعتقلين، بعد أن أصبح الاحتفاظ بهم كارثة تحل بسجانهم أو لا قبل أن تهدد المدانين أنفسهم، مهما كانت تهمهم، ومهما كانت درجة خطورتهم. فنظام السجون في العالم بأسره يعتمد بشكل أساسي على حشور المساجين في مكان محدد، وهذا لن يساعد في إنقاذهم من الإصابة بالوباء أو نقله.

نهاية المظاهرات والسجون

عدوى الإفراج عن السجناء لن تلبث أن تتواصل حتى تشمل العالم كله، مع تصاعد أرقام الوباء، والعجز عن إيجاد حلول لتطويقه في أحسن الحالات، ولنا أن نخيل عالماً يتدفق إلى مجتمعاته عشرات الآلاف من محتجزى الحرية، سواء كانوا أرباباً أو متهمين، كيف سيتغير شكل تلك المجتمعات؟ وكيف

وليس بالضرورة أن يقود إلى دولة مغلقة على مواطنيها خلف ستار حديدي، بل قد يقدم نمطاً جديداً أكثر تطوراً من النمط السابق. فالدولة في الحضارة الغربية بنسختها المعهومة، لا يمكن أن تستمر وفق سلم قيم لا ينظر بعين الاعتبار إلا إلى رفاهية العدد القليل من سكان وحدهم، فهناك ما هو أهم من الرفاهية؛ الأمن العالمي، ولم يكن مشروع الحرب على الإرهاب سوى مقدمة لتحقيق ذلك الأمن الذي سيمتد ليشمل نواح عديدة في حياة الإنسان؛ الأمن الصحي، الأمن العلمي، الأمن التقني، الأمن التكنولوجي، الأمن الفكري، الخ.

في دولة كهذه نحن على بعد خطوات قليلة منها، لن يكون مجال لمواصلة العمل بالأسلوب القديم، فالأحزاب والتجمعات والقيادات التي لم تجد نفعاً، سيتم استبدالها بخارى ذات تأثير حقيقي على تلك الجوانب الضرورية، إلى أقصى حد، من الأمن العام.

مبدأ "القوة الغاشمة" الذي اتبع في العديد من المساحات على خرائط الكوكب، لم يعد قادراً على قتل أحد، ولم يعد من الممكن استخدامه لتحقيق أي أهداف سياسية أو استراتيجية، ولم يعد بوسعها بسط النفوذ بعد اليوم. وهذا يعني فقدان جدوى تأسيس الميليشيات وعديد وعدة الجيوش التي كانت قادرة على اجتياح المدن والمناطق وتنفيذ المجازر والانتقالات وغير ذلك. فمرود إنشاء تلك الميليشيات والجيوش لا يقارن بكلفة نتائجها الباهظة صحياً ومن الممكن أن تتحول إلى مزارع للوباء لا تهدد المنطقة التي تعمل فيها وحسب، بل العالم بأسره.

مصير الجيوش

وليس خبراً عادياً إلى ذلك الذي نقلته وكالات الأنباء عن إقالة قائد حامله طائرات أميركية أطلق تحذيرات بعدما تعرضت سفينته لفتشي فايروس كورونا المستجد، مستجداً في خطاب إلى رؤسائه لإخراج البحارة من السفينة. ونقلت وكالة رويترز عن البنغاليون أن إقالة الكابتن برييت كروزييه قائد حامله الطائرات فيودور روزفلت من عمله، تمت بعد أن كتب خطاباً لرؤسائه تسرب للعلن يطلب فيه من البحرية اتخاذ إجراءات أقوى للسيطرة على فتشي فايروس كورونا على متن حامله الطائرات، وتهمة الرجل حسب وزارة الدفاع الأميركية أنه "تصرف خارج سلسلة القيادة".

وهذا سنرى سريعاً على المنطقة العربية، لاسيما الأقاليم التي فاخترت إيران طويلاً بانها باتت تحت نفوذها؛ العراق وسوريا واليمن ولبنان، ناهيك عن إيران ذاتها ومنظومة الحرس الثوري، بعد أن قام مشروع الولي الفقيه على تفكيك الدولة العربية وإحلال الميليشيات محلها، ولعل

الأهمية لدور القطاع العام بمقابل السوق الحرة. يرى كينز أن الاقتصاد يمكن أن يكون في حالة عدم توازن لفترة طويلة من الزمن، لهذا يدعو إلى ضرورة تدخل الدولة لإعادة التوازن إلى الاقتصاد، وضمان عدم حدوث انهيار. بينما التفكير القديم قبل ذلك كان يتحدث عن تلك "اليد الخفية"، التي ابتكرها آدم سميث في كتابه "ثروة الأمم". والتي يشير إليها بالقول إن "الفردي الذي يقوم بالإهتمام بمصلحته الشخصية يساهم أيضاً في ارتقاء المصلحة الخيرة لمجتمعه ككل". لأن العائد العام للمجتمع هو مجموع عوائد الأفراد. فعندما يزيد العائد الشخصي لفردي ما، فإنه يساهم في زيادة العائد الإجمالي للمجتمع.

أهم ما في لغة سميث ضمن فلسفته تلك هي عدم الاكتراث بالمعاني الجارحة التي يستعملها حين يشير باليد الخفية. بحيث نرى على سبيل المثال أنه لو سُمح لكل مستهلك بحرية اختيار السلعة التي يرغب في شرائها، وسمح لكل منتج بأن يبيع ما يشاء وأن يصنع السلعة التي يشاء وبالطريقة التي يرغب، فسيتنتهي المطاف بسلع ذات نوعية وسعر مناسبين ومفديين لكل أفراد المجتمع وبالتالي للمجتمع ككل. والسبب يعود إلى أن "الجشع سيكون عامل دفع لتصرف نافع".

الدولة الجديدة

غير أن كينز لا يعتقد أن هذا وحده كفيل بتحقيق الاستقرار الاقتصادي. فقد طالب بطبع النقد، لأن ذلك يساعد على زيادة الطلب على السلع، ويسرع دورة رأس المال وينشئها في المجتمع، ويخلق قيمة مضافة لاحقة تدعم النقد الذي تم طبعه. ولكن لا يعرف أحد ما الذي سيعنيه هذا في حال تطبيقه على نطاق واسع اليوم، فتغيير شكل الدولة لن يتوقف فقط على الاقتصاد.

طى صفحة الشكل القديم للدولة ذات الاقتصاد الحر، سيؤدي إلى تقليص حريات أخرى في المجتمعات العالمية،

كينز واليد الخفية

استعادة كينز اليوم، تعني حاجة حقيقية لدى الدول الأكثر تقدماً في العالم، لتغيير دور الدولة بصورتها المعروفة حالياً، إذ إن نظرية كينز تقوم على فكرة الاقتصاد المختلط، وتمنح الكثير من

الدولة في العالم الثالث

الدولة في الحضارة الغربية بنسختها المعهومة، لا يمكن أن تستمر وفق سلم قيم لا ينظر بعين الاعتبار إلا إلى رفاهية سكانها وحدهم، فالتضامن العالمي اليوم لن يتمكن من غض النظر عن المصير المجهول للدولة في العالم الثالث

إبراهيم الجبين
كاتب سوري

لم يكن من دون دلالة تكرار الإشارات الرسمية مؤخراً على لسان المسؤولين في العالم إلى تعبير "تاميم" الذي بات قريباً جداً من التطبيق، كما قال وزير المالية الفرنسي برونو لومير من أن الحكومة مستعدة إلى اللجوء "لكافة السبل" التي من بينها "التاميم إذا لزم الأمر، من أجل حماية الشركات الفرنسية المهددة جراء تفشي فايروس كورونا". وقد أعلن لومير مؤخراً أن باريس سوف تؤم الشركات الاستراتيجية، وأنه أرسل بالفعل إلى الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون، قائمة بالشركات الاستراتيجية التي قد تتعرض للخطر.

تاميم له مبرراته التي لن يعترض عليها أحد، ففتح في زمن فايروس كورونا، الزمن الذي سيقل الناس خلاله كل شيء في سبيل إنقاذ أرواحهم، ما يوحي بأن هناك تغييراً وشيكاً سيطرأ على شكل الدولة في العالم. وإلى جوار ذلك، لم يعد أحد يتخيل أن يستمر ذلك النمط الحشدي الذي انتشر في السنوات الأخيرة، القائم على تجميع البشر في مجموعات مترصة عقائدياً لتتقيد مهمات محددة. فالمسافة الصطفاة، ليس لاعتبارات إنسانية وعاطفية بل بسبب خطر الموت المحقق الذي يعنيه نقل العدوى من فرد إلى آخر. مع كل ما سبق، وبافتراض اللحظة الراهنة التي يرى أكثر المتفائلين في العالم فيها أن العنور على مخرج من الوباء قد يستغرق سنة كاملة على الأقل، تملو أصوات في الولايات المتحدة الأميركية تطالب بـ"الاقتصاد الكروي" نسبة إلى المنظر الاقتصادي البريطاني الشهير جون مينارد كينز صاحب كتاب "النظرية العامة في التوظيف والفائدة والمال". وتلك نظرية عرفها العالم عقب مرحلة الكساد العظيم في ثلاثينات القرن العشرين.

كينز واليد الخفية

استعادة كينز اليوم، تعني حاجة حقيقية لدى الدول الأكثر تقدماً في العالم، لتغيير دور الدولة بصورتها المعروفة حالياً، إذ إن نظرية كينز تقوم على فكرة الاقتصاد المختلط، وتمنح الكثير من

